

حمزة [بن علي] ^(١)

أبو يعلى بن العين زربي، الشاعر، كان فصيحاً فاضلاً أديباً، لما فتح أثنس بن أوق القدس وقتل بها ذاك العالم العظيم كان حمزة بالقدس، فقتل بالحرم في شوال رحمه الله، ومن شعره: [من السريع]

يا راكباً يقطعُ عرضَ الفلا
وقلْ لهم ما جفَّ لي مَدْمَعُ
ولا لقيتُ الطَّيفَ مُذْ غبْتُمُ
ولا هنا لي بعدكُم مَضْجَعُ
وإنما يلقاه مَنْ يهَجَعُ
وقال: [من الطويل]

تناسيتُم عهدَ الهوى بعدَ تذكاري
وأنكرتُم بعدَ اعترافِ موَدَّتي
وهلْ دامَ في الأيامِ وَضْلٌ لهاجِرٍ
أما حاكمٌ لي في هواكُم يُقِيلُني
وإنِّي لصَبَّارٌ على ما ينوبُني
فأجرى حديثي عندكُم دمعِي الجاري
فهَيَّجْتُمُ وجدي وأضرمْتُم ناري
وودُّ لِحَوَّانٍ وعهدٌ لِغَدَّارٍ
أما آخذٌ لي بعدَ سفكِ دمي ثاري
ولكن على هجرانكُم غيرُ صَبَّارٍ

ظاهر بن أحمد بن بابشاذ ^(٢)

أبو الحسن، النَّحوي، المصري، صاحب المقدمة المشهورة، كان عالماً فاضلاً، وله تصانيف في النحو، وسمع الحديث ورواه، وقُرئ عليه الأدب بجامع مصر سنين، صعد يوماً إلى سطح جامع مصر فوقع فمات من ساعته في رجب.

السنة السبعون وأربع مئة

فيها في ثالث المُحرَّم قتل السلطان جلالُ الدولة ملك شاه أنموه بن أتابك صاحب الجيش، وكان قد عصى عليه.

(١) تاريخ دمشق ١٥/٢١٢-٢١٣، ومعجم الأدباء ١١/٥-٨، وما بين حاصرتين من المصادر.

(٢) معجم الأدباء ١٢/١٧-١٩. وتنظر باقي مصادر الترجمة في السير ١٨/٤٣٩.

وفي يوم الخميس النصف من صفر قدم مؤيد الملك بن أبي بكر نظام الملك إلى بغداد، وخرج إلى لقائه الوزير فخر الدولة بن جَهير وولده عميد الدولة وجميع الخدم والحُجَّاب إلى الحلبة، وجاء إلى بيت النبوة، فخدم وانصرف.

وفي يوم الخميس سابع عشر ربيع الأول تُوفي القاضي أبو عبد الله محمد بن محمد ابن البيضاوي، الشافعي.

وفي ربيع الأول ظهر في السماء حُمرَةً مستديرةً كنصف دائرة كبيرة، ثم عقبها ريحٌ شديدةٌ ورعدٌ وبرقٌ شديد، ووقعت منه صاعقةٌ في محلة التوتة غربي بغداد على نخلتين في مسجد فأحرقتهما، واشتعل سَعْفُهُمَا وَكَرْبُهُمَا وَلِيْفُهُمَا، وأخذ الصبيان من السَّعْفِ والنار تشتعل فيه وهو يَقْدُ كالشمع وأُطْفِئَتِ النار^(١).

وفيه جاء خطلج دُزدار^(٢) أمير المؤمنين إلى الديوان يطلب تشريفاً، وكان قد ظلم أهل الكوفة وأخذ أموالهم، فقبل له في الجواب: ما تقدّم منك ما يوجب ذلك، ولا ما يقتضيه. فخرج مُغْضَباً، وعاد إلى الكوفة، واجتاز بنهر الملك، فقبض على نائب الخليفة في ضياعه، وأخذه معه إلى الكوفة، ثم أطلقه، فكتب الوزير إلى نظام الملك بما جرى وما أقدم عليه خطلج من خرق الهيبة، فكتب نظام الملك من ديوان ملك شاه كتاباً إلى خطلج يُوبِخُه ويلومه ويقول: أيها السلار سيف الدولة، وَقَفَّكَ اللهُ للرشد، إن قوام الدين والدنيا ومصالح البلاد والعباد وسكون الدهماء ونظام الأحوال كلّها معقودٌ بأبْهَةِ المواقف الشريفة المقدسة النبوية الإمامية المقتدية، ظاهرَ الله مجدها، وقمعَ ضِدَّهَا، التي هي الظلُّ الظليلُ في أرضه، ورحمته على خلقه، وجميع ما يشملنا ويصفو لنا ويصفو علينا، من عوارف الله تعالى ومواهبه ونعمه وعوائده، فَمِنْ أيامها الزاهرة، ودولتها القاهرة، وبركاتِ توفُّرنا على عبوديتها، وقيامنا بمفروض طاعتها، وانتسابنا أين كنّا وحيث حللنا إلى خدمتها، ومَنْ يبيغ في خلافِ خلافها، ومددَ عُنُقَه عن ربة بياعتها، فلا همّ لنا إلّا شدْحُ هامته، وإقامة قيامته كيف وافى، ومن أين لك أن تُلحَّ على السُدَّة العريضة بما لو ورد إلى فَمِكَ لَهْتَمَه^(٣)، ولو حُمِلَ على ظهرك

(١) الخبر بنحوه في المنتظم ١٦/١٩٠. والكَرْبُ: جمع كَرْبَةٍ، وهي أصل السَّعْفَةِ العريضة. اللسان (كرب).

(٢) في (خ): أدرار، وُدُزدار: لفظ أعجمي معناه: حافظ القلعة وهو الوالي. وفيات الأعيان ٧/١٤٢.

(٣) الهْتَمُ: الكسر. المعجم الوسيط (هتَم).

لقصمه، ثم تُلْفِي في منصرفك عنها بعضَ المنتمين إليها فترجّله عن دابته وتمدُّ يدك إلى أذيته، ولقد عَظُم علينا استماعُ ما تمادى منك إليه، وما بدا من فعلك المستنكرِ عليه، ولو رأيتِ المواقفَ الجلاليةَ تقويمك بأن تجعلك عبرةً لغيرك لأمرتُ به، ولكنّها أبَتْ عواطفها الكريمة، ورحمتها الواسعةُ العميمةُ إلا إعراضاً عن جريمتك، وإغضاءً عن عقوبتك، ولعلّنا بأنّ المواقفَ المقدسةَ الإماميةَ لا تستجيز عقوبتك، ولا ترى مقاتلتك، فمرّغُ حدودك على ترابِ الهيبةِ الشريفةِ، وتضرّعُ إلى مكارم تلك المراتبِ المُنيفةِ، وتعلّقُ بأذيال تلك المكارم الفائضة، واستدِرّ ظلالَ الرحمةِ الواسعةِ، وذكر كلاماً هذا معناه.

وفيها ورد كتاب أرتق بك من الأحساء باستظهاره على القرامطة وأخذ بلادهم وغنيمتهم، فحضر أرتق بك في الديوان وقرأه، وخرج توقيع الخليفة يشكره، وخلع عليه، وأعطى الفرس بمركب ذهب والمنجوق وثياباً.

وفي شعبان تُوفّيت بنت الوزير نظام الملك زوجة عميد الملك، وجلس الوزير ولده في العزاء، ودُفنت بدار الوزير بباب عمورية، ولم تكن العادةُ جاريةً بالدفن فيما يدور عليه السور.

وفي رمضان حُمِلَ إلى مكة منبرٌ كبيرٌ مُذهب، تولّى عمله فخر الدولة بن جَهير في داره، وكُتِبَ عليه اسم الخليفة وألقابه والآيات المتعلقة بالحاج ومكة، فاتفق وصوله إلى مكة وقد أُعيدت الخطبة المصرية، فأل أمره إلى أن أُحرق.

وفيها ورد كتاب نظام الملك إلى أبي إسحاق الشيرازي جواباً عن كتابه المتقدم يشكو فيه الحنابلة نسخته: ورد كتابك أيها الشيخ بشرحٍ أطلت فيه الخطاب، وندبتنا إلى استدعاء الجواب، وليس من الواجب أن نتحيّز في المذهب إلى جهةٍ دون جهةٍ، وليس ذلك مقتضى السياسة والمعدلة في الرعية، ونحن بتأييد السنن أولى من تشييد الفتن، ولم يتقدّم بيان هذه المدرسة إلا لضيافة العلم والمصلحة، لا للاختلاف وتفريق الكلمة، ومتى جرت الأمور على خلاف ما أردناه من هذه الأسباب فليس إلّا التقدم على بغداد ونواحيها، ونقلهم عما جرّث عليه عاداتهم فيها، فإن الغالب هناك هو مذهب الإمام أبي عبد الله أحمد بن حنبل رحمة الله عليه، ومحله بين الأئمة وقدره

معلوم في السنة، وكان ما انتهى إلينا أن السبب في تجديد ما تجدد مسألة سئل عنها أبو نصر بن القشيري من الأصول، فأجاب عنها بخلاف ما عرفوه من معتقداتهم، وألفوه من عاداتهم، فقموا ذلك عليه، وليس في العادة أن يُجبر الإنسان على الانتقال من مذهبه، ولا عن الانحراف عن معتقده، ومعلوم أن أهل قاشان كانوا على مذهب أبي حنيفة، فلم يكن يلزمهم أصحاب الشافعي الدخول في معتقدهم، وكذا أصحاب الظاهر اعتقدوا مذهب الشافعي، فلم يلزمهم أصحاب الرأي الخروج عن مذهبهم، وقد منع الله عن ذلك مَنْ تَقَدَّمَ، فقال: ﴿وَلَا تَسْبُوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسْبُوا اللَّهَ عَدَاوًا بَغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام: ١٠٨] وقد كان أهل المذاهب بأصبهان وغيرها من البلاد أكثر انتشاراً منه ببغداد، فلم يتقدم إليهم في ذلك بما يشقُّ به عليهم، والشيخ أبو إسحاق فرجلٌ سليم الصدر، سلس الانقياد، يُصغي إلى كلِّ ما يُنقل إليه، ويقع تعويله عليه، وعندنا من تضادِّ كتبه ما يدلُّ على ما وصفناه من سهولة مجتذبه، والسلام. وبلغ الحنابلة، فسروا واطمأنوا، وانسطوا واستطالوا، فلما كان في اليوم الثامن من شوال ومجتمع الناس للبطالة والفرجة خرج من مدرسة النظامية فقيهٌ يُعرفُ بالإسكندراني - وكان معروفًا بإثارة الفتن - ومعه جماعةٌ من أبناء جنسه إلى سوق الثلاثاء، فتكلم بتكفير الحنابلة، فثاروا عليه وضربوه، ونهب السوق، وقُتلَ بينهم رجلٌ من الشافعية، وثارَت الفتنة، وتراموا بالشُّباب، وبعث الخليفة أصحابه وخدمه الخواص، ففرقوا بينهم، وحول القتل إلى الديوان، وكتب إلى نظام الملك بشرح الحال، فجاءت منه مكاتبات بضد الأول، وأن يُدخل العميد يده في بعض إقطاع الخدمة الذين نشبت إليهم الفتنة، ووصل تاج الدولة تُش أخو ملك شاه إلى الشام.

وفي يوم السبت التاسع عشر من شوال وُلد للخليفة مولودٌ سمَّاهُ أحمد، وكنَّاهُ أبا العباس، وجلس الوزير فخر الدولة في باب الفردوس للهناء، وعُلِّقت بغداد من الجانيين سبعة أيام، وهذا المولود ولي الخلافة وهو المستظهر بالله، ووُلد له في ذي القعدة آخرُ سمَّاهُ هارون، وتوفي في العشر الثاني من رمضان سنة إحدى وسبعين وأربع ومئة^(١).

(١) الخبر في المنتظم ١٦/١٩١.

وفيهما توفي

أحمد بن عبد الملك بن علي^(١)

أبو^(٢) صالح، النيسابوري، المؤذن، ولد سنة ثمان وثمانين وثلاث مئة، وحفظ القرآن وهو ابن تسع سنين، وسمع الحديث الكثير، وصنّف الأبواب والشيوخ، وكان يؤدّن ويعظ، وكانت وفاته بنيسابور في رمضان، وكان قد سأل الله أن لا يُميته إلا فيه، فاستجاب دعاءه، وخرج عن ألف شيخ له ألف حديث، كلُّ حديث عن شيخ، وكان شيخ الصوفية في وقته معلماً وعملاً وصدقاً وأمانةً وصلاًحاً، وكان حافظاً صدوقاً، أنشد لغيره^(٣): [من البسيط]

يا رَبِّ سَاعٍ لَه فِي سَعِيهِ أَمَلٌ يَفْنَى وَلَمْ يَقْضِ مِنْ تَأْمِيلِهِ وَطَرَا
مَا ذَاقَ طَعْمَ الْغَنَى مِنْ لَا قَنُوعٍ لَهُ وَلَنْ تَرَى قَانِعاً مَا عَاشَ مَفْتَقِراً
الْعُرْفُ مَنْ يَأْتِيهِ يَحْمَدُ مَغْبِئَتَهُ مَا ضَاعَ عُرْفٌ وَلَوْ أَوْلِيَتْهُ حَجْرَا

عبد الخالق بن عيسى^(٤)

ابن أحمد بن محمد بن عيسى بن أحمد بن موسى بن محمد بن إبراهيم بن عبد الله ابن سعيد بن العباس، أبو جعفر بن أبي موسى، الشريف، الهاشمي إمام الحنابلة ومقدمهم في زمانه، وُلِدَ سنة إحدى عشرة وأربع مئة، كان إماماً ورعاً فاضلاً، قَوَّالاً بالحق، لا تأخذه في الله لومة لائم، تفقّه على القاضي أبي يعلى، وكان يشهد، ثم ترك الشهادة قبل وفاته، ولم يزل يُدرّس بمسجده في سكة الخرقى بباب البصرة وجامع

(١) تاريخ بغداد ٤/٢٦٧، والمنتظم ١٦/١٩٣، والكمال ١٠/١٠٨، ومعجم الأدباء ٣/٢٢٤، وتاريخ الإسلام ١٠/٢٨٦، والنجوم الزاهرة ٥/١٠٦ وغيرها. وتظر تنمة المصادر في السير ١٨/٤١٩.

(٢) في (خ): بن، والتصويب من المصادر.

(٣) وهو مهدي بن سابق كما في مختصر تاريخ دمشق لابن منظور ٣/١٥٨، ونسب - أيضاً - كما في الحلية ٧/٢٢٠ إلى مسعر بن كدام.

(٤) المنتظم ١٦/١٩٥-١٩٧، وطبقات الحنابلة ٢/٢٣٨-٢٤١، وذيل طبقات الحنابلة ١/٥١-٢٦. وتظر بقية المصادر في السير ١٨/٥٦٤.

المنصور مدةً، ثم انتقل إلى الجانب الشرقي، فكان يُدرّس بمسجد مقابل دار الخلافة، ودرّس بجامع الرُّصافة وغيره، ولمَّا غَسَلَ القَائِمَ أوصى له بأشياء كثيرة، فلم يأخذ منها شيئاً، فلمَّا فرغ من غسله استدعاه المقتدي فبايعه في مكانه منفرداً، وأسكنه المقتدي في داره خوفاً عليه، ولمَّا اشتدَّ مرضه قال: احملوني إلى باب حجرة الخليفة. فحملوه، فقال: يا أمير المؤمنين، قد قَرَبَ الوَقْتُ، وما أَحِبُّ أن أموت إلا بين أهلي. فأذِنَ له، فمضى إلى بيت أخته بالحريم الطاهري، ولم يُخَلَّفْ شيئاً من الدنيا سوى الحبل والدلو الذي كان يستقي به الماء، وكتاباً يُطالِع فيه، وكانت وفاته ليلة الخميس النصف من صفر، وصُلِّي عليه يوم الجمعة بجامع المنصور، وكان يوماً مشهوداً، يُقال في جنازته: ترَحَّموا على الشهيد المسموم القَتِيل. فيُقال: إنه سَمَّه بعضُ المخالفين في مداسه. ودُفِن إلى جانب الإمام أحمد رحمة الله عليه، وكان الناسُ يبيتون هناك كلَّ ليلة أربعاء، ويبيعون المأكول والفواكه، فيُخْتَم عنده في تلك المدة عشرة آلاف ختمة، ثم جاء الشتاء، فانقطعوا. وكان صدوقاً، ثقةً، زاهداً، عابداً، وصنَّف التصانيف في مذهب الإمام أحمد رحمه الله.

عبد الرحمن بن محمد^(١)

ابن إسحاق بن محمد بن يحيى بن إبراهيم، أبو القاسم، الأصفهاني، ويُعرفُ بابن مندة، ومندة لقب إبراهيم جدّه، إمامٌ ابنُ إمام، وُلد سنة ثلاث وثمانين وثلاث مئة، وسمع خلقاً كثيراً، وكان عظيمَ الشأن، كثيرَ السماع، سافر البلاد، وصنَّف التصانيف، وخرَّج التاريخ، وكان له سمٌّ ووقارٌ، وأتباعٌ فيهم كثرة، وكان متمسكاً بالسنة، معرضاً عن أهل البدع، آمراً بالمعروف، ناهياً عن المنكر، وكانت وفاته بأصبهان، وصُلِّي عليه أخوه عبد الوهاب، وكان في جنازته خلقٌ لا يُحصون كثرةً.

(١) المنتظم ١٦/١٩٤-١٩٥، وطبقات الحنابلة ٢/٢٤٢، وذيل طبقات الحنابلة ١/٢٦-٣١، والكامل

١٠٨/١٠. وتنظر باقي المصادر في السير ١٨/٣٤٩.